الآخرة حقٌّ ثابتٌ

لا ريبَ فيها

الإمام الشيخ

عبد الله سراج الدين

رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها)
من الصفحة ٧ حتى الصفحة ٢١

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناء على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم مؤلفات الإمام
- المؤلفات المكتوبة وقبسات من المؤلفات

مدير الموقع :
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

مقدمة

في أَنَّ الآخرة هي حقٌّ ثابت لا ريب فيها

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ ـ أي: اليوم الآخر ـ ﴿ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾.

إنَّ كلَّ عاقل إذا أمعن النظر في الآيات القرآنية الكريمة، يجدها قد سلكت في إثبات الآخرة، والنشر والحشر والحساب، وجميع ما هنالك ـ أحسنَ الطرق التي تُنير العقول، وتُبَصِّرها منهاج الوصول إلى اعتقاد ذلك، والإذعان إليه ـ ونحن نقدِّم إليك بيان هذا.

إنَّنا إذا تدبرنا الآيات الكريمة التي تَبحث عن الآخرة، يتضح لنا جليّاً أنّها تستنهض العقول مِنْ غَفلاتها، وتَسْتَفِزُّ الأفكار من مَراقدها، لأجل أن تَضْطَرها إلى إثبات عالم الآخرة، وإنَّ العقل السليم ليأبى أن يقف عند حدِّ عالم الدنيا الفاني، ويُنكرَ العالم الآخر الباقي؛ وقد جاءت الآيات القرآنية في إثبات ذلك على وجوه متعددة:

أولاً: تنبيه القرآن الكريم إلى أَنَّ النظر في العالم السماويِّ والأرضيِّ يُؤدي إلى إثبات الآخرة:

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾.

فقد أنار الله تعالى لأُولي الألباب، وهم الذين عَبَروا حجاب الحِسِّ حتى انتهوا إلى اللباب، أنار الله تعالى لهم طُرُق النظر والتفكر في خلق السموات والأرض، وما أودع فيهما من آيات القدرة، وشواهد العلم والحكمة، فجالت أفكارهم في تلك الآيات السماوية والأرضية، مُعتبرين مُستبصرين، فأيقنوا بوجود ربٍّ خالق عليم حكيم، تجلَّت آثار صفاته في مَصنوعاته ومُبدَعاته، وأشرقت أنوار أسمائه سبحانه في مرايا مخلوقاته.

فشاهدَ أُولو الألباب تلك الصفات الإلٰهية مسطورة على صفحات الكائنات العلوية والسفلية، وقالوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾ وحينئذ التزموا عبادة هذا الإلٰه الربِّ العليم الحكيم وفاءً بحق ربوبيته عليهم، ولازموا ذكره قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم.

ثم إنهم تابعوا السير بعقولهم وألبابهم، يتجوّلون ويتفكرون في أنحاء الآيات السماوية والأرضية؛ وسائر الآيات الآفاقية، فانتهوا إلى نتيجةٍ لهذا العالم، وأيِّ نتيجة، وما أصحها وما أحكمها

وما أصدقها من نتيجة ـ إنها نتيجة مقدِّمات عالم الدنيا كله.

وهي: أَنَّ هذا العالم البديع المُحْكم، والمصنوع المتقن، الذي يسير بنظام وإحكام، فالسماء في إبداع وإتقان، والشمس والقمر بحسبان، والكواكب في سير وانتظام.

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

وفيها الحبُّ ذو العصف والريحان، وفيها الليل والنهار، والأنهار والبحار، والزروع والأشجار، إلى ما وراء ذلك من آيات الاعتبار لأولي الأبصار.

فأيقنوا أن هذا العالم المحكم المتقن، لا يجوز في مُقتضيات العقول الصحيحة؛ أَنْ يكون أَمره عبثاً، ولا أَنْ يكون بِناؤه باطلاً، ويستحيل عقلاً أن يكون ليس وراءه حكمة عُليا، هي نتيجة لِحِكْمة خلقه ونشأته، بل لا بُدَّ وأَنَّ هناك نَشْأَةً أُخرى وراء هذه النشأة، تتجلى فيها جميع حِكَمِ النشأة الأولىٰ، وتظهر فيها نتائج التكاليف الشرعية، وَيَميز الله تعالى فيها الخبيث مِنَ الطيِّب، والصالح من الطالح، والمسيء من المحسن، وينتقم فيها مِنَ الظالم للمظلوم، ومن الباغي للمَبْغيِّ عليه.

ولولا تلك النشأة الآخرة، لضاعت حكمة خَلْق هذا العالم، ولكان أمره عبثاً باطلاً ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

بَلْ لولا حَقيَّة الآخرة ـ وهي: الحاقَّة التي تَحقُّ فيها الحقائق ـ

لولا ذلك لضاعت حِكمة الشرائع الإلٰهية الحكيمة القويمة، لأنه حِيْنَئِذٍ يتساوى الحق والباطل، والعَدْل والظلم، والفساد والصلاح ـ وهذا أمر باطل مُحال كإحالة وبطلان تساوي الظلمة والنور، والعَمىٰ والبصر، والجهل والعلم، والأحياء والأموات.

وإلى هذا كله نَبَّه الله سبحانه وتعالى العقلاء فقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

فالحكمة في الخليقة الكونية، والحكمة في الشرائع الإلٰهية تقضيان أَنْ يكون هناك يوم آخر، فيه المسؤولية والجزاء، ومِنْ ثَمَّ قال أولوا الألباب: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: نُنَزِّهُك عن اللعب والعَبَث في خلقك وشرعك، وإنما خلقت الخلق بالحقِّ والحكمة، التي تقتضي الجزاء بالثواب أو العقاب، ولا بُدَّ في ذلك من جنةٍ ونار ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

ثم إنَّهم سألوا الله تعالى الجنة التي وعدهم بها على ألسنة الرسل صلوات الله على نبينا وعليهم أجمعين: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

وقد مدح الله تعالى في تلك الآيات الكريمة أولي الألباب، الذين جالت أفكارهم في أنحاء العالم السماوي والأرضي وما بينهما، وبذلك انجلت لهم حقائق الحقِّ الذي به خُلِقَت

السموات والأرض، وتجلَّت لهم حكمة الله تعالى في خلقه بَدءاً وانتهاء، وحكمة الله تعالى في رسالاته وشرائعه.

وقد ذم الله تعالى الغافلين عن التفكر، ونَعَىٰ على الذين لا يُعمِلون أفكارهم، فلا يتفكرون ولا يتعقَّلون؛ فقال سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ الآية.

والمعنى أوَلم يُثبتوا ويُحقِّقوا التفكر في أنفسهم ـ أي: في قلوبهم وضمائرهم النفسية، أي: فمالهم ـ قبّحهم الله تعالى ـ رضوا أن تكون قلوبهم فارغة من التعقُّل، ونفوسهم خاوية من التفكر؟! فإن هذه صفة الحيوان البهيمي، وليست صفة الإنسان العاقل، فكيف بهم وقد رضوا أن يكونوا في عِداد البهائم الهَمَل، لا تفكير لهم ولا تعقُّل في أمر هذا العالم، وحكمته ونهايته.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾.

يعني أنَّهم لو رجعوا إلى صوابهم، وفكروا في ضمائر نفوسهم، لَعلِموا أن الله تعالى ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالحقِّ، وأنه لم يخلقها باطلاً ولا عبثاً بغير حكمة بالغة، وإنَّما خلقها مقرونة بالحقِّ، مصحوبة بالحكمة، ومنتهية للحكمة، وإن مِنَ الحكمة تقدير أجلٍ مسمَّى وهو قيام الساعة، ووقت الحساب، والجزاء: بالثواب أو العقاب.

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ الآية.

ويُحتمل أن يكون المعنى: أولم يتفكر هؤلاء الغافلون الهَمل

في أنفسهم التي هي أَقرب الخلْق إليهم، وما أودع الله تعالى في هذه النفس من بدائع الحكمة، وحُسن التدبير والصنع، ومِنْ ثَمَّ يَتَطلعون إلى التفكر في الآفاق المحيطة بهم من السموات والأرض وما بينهما، وبذلك يهتدون إلى الحق الذي قامت به السموات والأرض، ويعلمون أَنّه لا بُدَّ من الانتهاء إلى أجل مسمى، وهو القيامة، وما احتوت عليه من الجزاء والحساب.

ثانياً: تنبيه القرآن الكريم إلى أَنَّ النظر في إبداع الإنسان يُؤدي إلى إثبات الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

أقسمَ سبحانه بأفضل مهابط الشرائع الإلٰهية المباركة، ومنازل الوحي بالكلام الإلٰهي النازل على رسُله صلوات الله عليهم؛ مَهبط نزول الوحي على عيسى عليه الصلاة والسلام، وإنزال الإنجيل عليه، وهو البقعة المباركة من فلسطين، وأشار إلى ذلك بما يَنْبُت عليها من التين والزيتون المبارَكين، الكثيرين في تلك البقعة.

ثُمَّ أقسم بطُور سَيناء، مهبط نزول التوراة على موسى عليه الصلاة والسلام.

ثم أقسم بالبلد الأمين، بلد الله الحرام، مكة وما حولها، مهبط نزول النبوة والرسالة على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وترتيب ذكر هذه المواضع هنا جاء على طريق الترقي.

فقد أقسم سبحانه بمهابط الوحي ومنازل الكلام الإلٰهي والتشريعات الإلٰهيَّة؛ على خلق هذا الإنسان في أحسن تقويم، ثم تَـعَهَّدهُ بما يُسعده ويُصلح شأنه في أمر التشريع، فقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ أي: في أحسن كمال واعتدال في الصورة والمعنى.

قال العلامة الراغب: تقويم الشيء: تثقيفه، قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ وذلك إشارة إلى ما خُصَّ به الإنسان من بين أنواع الحيوان: من العقل، والفهم، وانتصاب القامة الدّالة على استيلائه على كلِّ ما في العالم. اهـ.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ وجيء هنا بثُمَّ ليُشير إلى ما طُويَ ذكره، ولكن دلّ عليه فيما بعده؛ والمعنى: خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، ولكن لَمْ نُهمِلْه، ولم نتركه سُدىً، بل تعهدناه بالهدى، وإنزال الشريعة، وبيان الأحكام التي فيها سعادته وصلاحه، ليحفظ عليه حسن تقويمه وكماله الإنساني، فإن الله تعالى الذي أحسنَ الخَلْق والتقويم؛ قد أحسن وأحكم الشرع الحكيم، وجعل هذا الشرع الإلٰهي واقياً للإنسان من النقص والتدني في حضيض البهيميَّةِ الحيوانية، راقياً به من الإنسان الحيواني إلى الإنسان الربانيِّ؛ قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ ﴾.

وذلك المَطْويُّ تحت ﴿ثم﴾ هو الذي ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ أي: هَمَلاً بلا تكليفٍ أو نهي؛ يكون فيه صلاحه وسعادته.

وهو المذكور بقوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ

عَدُوٌّ ﴾ أي: بعض أبنائكم الذين هم يلدون منكما يا آدم وحواء لبعض عدوٌّ.

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾ خطاب لبني آدم عليه السلام، الذين هم في صلب آدم وسيلدهم، فأكد سبحانه بأنه يَتَعَهَّدهم بالهدى فورَ هبوط البشرية إلى عالم الأرض ـ أي: بأن يُنزل الشرائع وفيها البيانات الثابتة بالبيِّنات، والإرشادات إلى ما فيه الصلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ ﴾ ـ أي: في الدنيا ـ ﴿ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ ـ أي: في الآخرة ـ ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ ـ أي: تذكيري، وهَديي وبياني ـ ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ ـ أي: ضيِّقة شديدة، مَحوطة بالمساوىء والهموم والمضايق، وذلك في الدنيا ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴾ الآية.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴾ أي: فأنزلنا عليه الشريعة، وبَيَّنَّا له ما يضره وما ينفعه على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام، **فهناك قِسم كبير** من بني الإنسان أعرض عن تلك الشرائع، وردَّها، ولم يتصف بالفضائل والكمالات التي جاءت بها تلك الشرائع؛ فرددناه أسفل سافلين، لأنه هو سَفَّل نفسه، ونزل بها إلى مُستوى البهيمية، **ولكنْ هناك** قسمٌ آخر من بني الإنسان آمنوا بما أنزل الله تعالى، وعملوا بموجب شريعة الله تعالى، فارتقوا في الدرجات العُلىٰ، وهؤلاء هم الذين قال فيهم سبحانه: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي: دائم غير مقطوع، وإنما ذَكر هذا القِسم على طريق الاستثناء لقلتهم بالنسبة لكثرة الذين كفروا.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ ﴾ الآية.

ثم قال سبحانه: ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴾ المراد بالدين هنا الجزاء المرتَّب على الحساب.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ أي: جزاءهم.

وقال تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ أي: هو سبحانه الملِك والمالك ليوم الجزاء، وهو المحاسب لا غيره جلَّ وعلا.

وفي الحديث الحسن، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول الله تعالى: «أنا الملك، أنا الديّان» أي: المحاسب والمجازي.

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾.

هذا خطاب للإنسان كما قال مجاهد وأكثر المفسرين، والمعنى أيُّ شيء يجعلك أيها الإنسان مكذباً بالدين ـ أي: الجزاء والحساب من بعد هذا البيان والبُرهان، وأن الله تعالى قد خلقك في أحسن تقويم، فصوَّرك وعَدَلك، ثم تعهَّدك بالشريعة التي فيها صلاحك وسعادتك، ولم يتركك سُدىً، بل إنّه بيَّن لك ما ينفعك وما يضرك، فمالَك أيها الإنسان ذهبت تُنكر الحشر والجزاء؟!

فمن ناحية القدرة هو أقدر على أن يُعيدك بعد مَوتك، ويُنْشِئك خلقاً جديداً، فإنه لو عجز عن الإعادة لأَعجزه وأعياه خلقك الأول ـ كلا بل هو سبحانه كما قال: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ﴾ ـ أي: بل لم نعجز ـ ﴿ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾.

ومن ناحية الحكمة فإنَّ حكمة أحكم الحاكمين تقتضي أن يعيد

الإنسان مرة ثانية للجزاء والحساب ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾.

وهذا أمر مُبرم ومحكم لا محالة.

وذهب بعض المفسرين إلى أَن الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ **هو خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم،** وحينئذ يكون المعنى: ومَن الذي يُكذبك بالجزاء يا رسول الله بعد هذا البيان، والحجة والتبيان، إلى آخر ما تقدَّم ـ أي: فما أحد عنده عقلٌ ورويَّة يُكذِّبك بالجزاء؛ وقد جئتَ بالأدلة القاطعة التي تُثْبت ذلك حقاً.

ثالثاً: النظر في حكمة الشرائع الإلٰهية يُؤدي إلى إثبات اليوم الآخر:

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾.

فالله تعالى الذي خلق العالم هو حكيم، ومن مقتضى حكمته سبحانه إنزال الشرائع يتعهَّد عباده بما فيه صلاحهم، ويدلُّهم على ما فيه خيرهم وسعادتهم في الدنيا، وَيُحذِّرهم مما فيه فسادهم وشقاؤهم في الدنيا والآخرة، ومِنْ مقتضى حكمة التشريع الإلٰهي أن يُعيد الثقلين مرة ثانية، وَيُرجعهم الله لأجل أن يحاسبهم، ويجزيهم بأعمالهم التي عملوها، فمنهم الطائع، ومنهم العاصي، ومنهم المؤتمر بأوامر الله تعالى، ومنهم المتكبر على شريعة الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ ـ أي: رجوعهم ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾.

فما خلق سبحانه البشر عبثاً لا لحكمة، ولا لأمر ولا نهيٍ، ولا لحساب ولا سؤال؛ بل ذلك ظنُّ الذين كفروا، وجهلوا حكمة ربهم الذي خلقهم سبحانه، وإنما خلقهم عن حكمة ولحكمة، وسوف يجمعهم في الآخرة عن حكمة ولحكمة.

فَخَلْقُ البشر بلا تشريع عَبَث، وتشريع وأمر ونهي بلا عودةٍ ومرجعٍ إلى المِلك الحكم العدل باطل، فتعالى الله الملك الحق أن يَخلق ولا يَشرع ما فيه سعادة البشر ومصالحهم، وتعالى الله أن يشرع ولا يُرجعهم إليه للحساب والجزاء؛ لما في ذلك من التسوية بين المحسن والمسيء، والصالح والطالح، والظالم والعادل، فتعالى الله تعالى أن يُساوي بين أولئك.

قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أي: كلا ولا.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أي: لا يُؤمر ولا يُنهىٰ.

فالآيات القرآنية تُرشدنا إلى أَنَّ قضية الآخرة هي حق وحقيقة لا ريب فيها، يؤمن بها أهل العقول الصحيحة، ويستدلون على حقِّيَّتِهَا بمختلف الدلائل الكونية، الآفاقية والنفسية، والدلائل التشريعية.

قال العلامة فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى في: (تفسيره): مِنَ الأدلة العقلية على المعاد، أَنّه قد دلت الأدلة على أَنّ العالم حادث، فلا بدَّ له من مُحدث قادر، ويجب أَن يكون عالماً، لأنَّ الفعل المحكم لا يصدر إلا من العالِم، ويجب أن يكون غنياً عنها

ـ أي: عن العوالم ـ وإلاَّ كان خَلقها في الأزل وهو محال ـ أي: بل العالَم حادث وليس بقديم.

فثبت أَنَّ لِهذا العالَم إلَهاً قادراً عالماً غنياً، ثم لما تأملنا فقلنا: هل يجوز في حق هذا الحكيم الغني عن الكل أَنْ يُهمل عبيده ويتركهم سدى ـ أي: بلا بيان وتشريع ـ ويُجوِّز لهم أن يكذبوا عليه، ويبيح لهم أن يشتموه ويجحدوا ربوبيته، ويأكلوا نعمته، ويعبدوا الجِبْتَ والطاغوت، ويجعلوا له أنداداً، وينكروا أمره ونهيه، ووعده ووعيده؟!.

فها هنا حَكَمتْ بديهية العقل بأن هذه المعاني لا تليق إلا بالسفيه الجاهل، البعيد عن الحكمة، القريب من العبث، فحكمنا لأجل هذه المقدِّمة: أَنّ له سبحانه أمراً ونهياً.

ثم تأملنا فقلنا: هل يجوز أن يكون له أمر أو نهي، مع أنه لا يكون له وعد ووعيد؟

فحكم صريح العقل بأنَّ ذلك غير جائز، لأنَّه إنْ لم يَقرن الأمر بالوعد بالثواب، ولم يقرن النهي بالوعيد بالعقاب ـ لم يتأكد الأمر والنهي، ولم يحصل المقصود، فثبت أَنَّه لا بد من وعد ووعيد.

ثم تأملنا فقلنا: هل يجوز أن يكون له وعد ووعيد، ثم إنه لا يَفي بوعده ولا بوعيده لأهل العقاب؟ أي: الذين لا يليق بمقتضى الحكمة أن يَغفر لهم كالمشركين مثلاً.

فعلمنا أَنْ لا بد من تحقيق الثواب والعقاب، ومعلوم أَنّ ذلك لا يتم إلاّ بالحشر والبعث، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

قال رحمه الله تعالى: فهذه مقدِّمات يتعلق بعضها ببعض،

كالسلسلة متى صح بعضها صحّ كلها، ومتى فسد بعضها فسد كلها؛ فدلَّت مُشاهدة أبصارنا لهذه التغيرات ـ الكونية ـ على حدوث العالم، ودل حدوث العالم على وجود الصانع الحكيم الغني، ودل ذلك على وجود الأمر والنهي، ودل ذلك على وجود الثواب والعقاب، ودلّ ذلك على وجود الحشر ـ أي: ليتحقق الجزاء على فعل الأمر، ومخالفة النهي.

فإن لم يثبت الحشر أدى ذلك إلى بُطلان جميع المقدمات المذكورة، ولزم إنكار العلوم البديهية، وإنكار العلوم النظرية القطعية. اهـ كلام الرازي رحمه الله تعالى.

وقد يُعاند بعض الجهال، ويتعامى عن تلك الأدلة كلها **ويقول**: هل هناك من قد ذهب وكشف لنا النقاب عن حقيقة الأمر، ورجع فأخبرنا عما هنالك؟ فإننا لا نُصدق إلا بالعيان، ولا نقبل الدليل ولا البرهان.

فيقال لهذا الجاهل الذي عمي عما ذكرناه من الأدلة: نعم، هناك من ذهب واطلع على تلك العوالم التي سينقلب الناس إليها، وعاد فأخبر عن جميع ذلك تفصيلاً.

وهذا المخبر الذي رأى فأخبر هو أصحُّ العالمين نظراً، وأصدق خَلْق الله تعالى خَبَراً، ألا وهو سيدنا محمد الصادق الأمين، بشهادة أحبائه وأعدائه صلى الله عليه وآله وسلم.

فإذا كان الإنسان يُصدِّق الرجل الثقة المخبر الصادق، الذي يُخبره عن بلد كذا وكذا وما فيها من كيْت وكيْت، فكيف لا يُصدِّق أصدق العالمين سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، الذي

أسرى به الله تعالى ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به إلى السموات، ثم إلى سدرة المنتهى، وشاهد هناك عالم الجنة، وأُدْخل الجنة.

واطلع على عالم النار، ورأى ما رأى من ألوان عذاب أهل النار، وأنواع المعذَّبين.

وأطلعه الله على ما هنالك من العوالم؛ ثم عاد فأخبر عن ذلك تثبيتاً وتطميناً للمؤمنين بما غاب عنهم من تلك العوالم، وَحُجةً على المنكرين المعاندين الذين لا يُصدقون إلا بالعيان.

وهذا من جملة حِكَم المعراج العائدة إلى الأُمة باليقين والتمكين والطمأنينة، ليكونوا على يقين في عقيدتهم بلا شك، وكأنهم عاينوا ذلك كله.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾.

ففي هذه الآيات يقسم سبحانه بالنجم إذا هوى، وهذا يشمل جميع النجوم السَّيَّارة، التي تهوي من المشارق إلى المغارب، يُقسم بذلك على حَقِّيَّة هَدْي هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم، ورشاده وصدق منطقه وصوابه، وَينفي عنه كل النفي أن يكون ضل أو غوى، أو تكلم عن هوى؛ ويؤكد ذلك بإقرار قومه باعتبار أنه صاحبُهم، نشأ بينهم وعاملوه، فهم أعرف الناس بصدقه وأمانته، وصفات كماله، لم يعثروا له على ضلالة ولا غواية منذ صغره صلى الله عليه وآله وسلم، وفي هذا تمهيد وإقامة حجة؛

على أنه صادق مصدَّق فيما رآه وسمعه ليلة معراجه إلى العوالم العلوية من السموات السبع، وسِدرة المنتهى، ومستوىً سمع فيه صريف الأقلام، وما هنالك مما رأى وشاهد من الجنة والنار.

وما اطلع عليه من العوالم الغيبية، ونعيم أهل البرزخ وعذابهم؛ واطلاعه على عذاب العُصاة والزُّناة والرباة وما وراء ذلك، ولذلك جاء بعد ذلك القسم والمقسم عليه في تلك الآيات، جاء ذكر المعراج، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم وصل إلى سِدرة المنتهى، ثم إلى عالم الجنة، وعاين ما فيها إلى ما وراء ذلك كما بيَّنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أحاديث المعراج.

فقضايا الآخرة ثابتة بالقرآن، وبالبرهان، وبالعيان من أصدق إنسان؛ في جميع الأكوان، فلا حاجة بعد ذلك إلى حُجَّة وبيان، ولا ريب في قطعيَّة صِدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأمانته، الذي صدَّقه الله تعالى، وصدَّقَتْه ملائكة الله تعالى، وصدقته عباد الله، وصدَّقته الأشجار والأحجار والأمدار، وصدقته ـ أي: شهدت بصدقه وأمانته ـ أعداؤه، فإنهم كانوا يُسَمُّونه الصادق الأمين، ولم يَعثروا له على كذبة قطُّ منذ صغره، حتى قال له أبو لهب الذي هو أشد أعدائه قال: يا محمد ما جرَّبنا عليك إلا صدقاً ـ وتفاصيل ذلك ليس موضعها هنا.

* * *